

## الباب الثالث

### الإسلام والجهاد في نشره

بداية الإسلام :

ظهر الإسلام أول ما ظهر بمكة المكرمة ، حين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إليه بأمر ربه : ( يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۖ قُمْ فَأَنذِرْ ۗ وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ ۗ وَتِيَابِكَ فَطَهَّرٌ ۗ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۗ وَلَا تَمُنْ بِتَسْتَكْبِرُ ۗ وَكَرَبُّكَ فَاصْبِرْ ) ، والمدثر أى المغطى بالغطاء ، والرجز هى الأوثان ، ودليله ( فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ) وكان قومه يعبدونها من دون الله ، وكان هو يعاف بنفطرته الطاهرة عبادتها ، ويخلو بربه كل عام فى غار حراء بعيداً عن مجتمعهم ، حتى أكرمه الله برسالته للناس كافة ، عربهم وعجمهم ، فكانت أعظم الرسالات وأشملها ، كما كانت خاتمة الشرائع السماوية .

معنى الشهادتين :

وأساس الإسلام كما بينا آنفاً الشهادتان : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، » فينطق بهما لسان المسلم ويعتقدهما قلبه ، فيقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ومعنى « أشهد » أى أتحقق وأجزم ، « ولا إله إلا الله » معناها لا معبود بحق إلا الله ، فالسلطان المطلق والسيادة كلها له وحده سبحانه ، ووحديته تقتضى ألا يكون له شريك ولا صاحبة ولا ولد . ليس كمثل شئ ، وهو السميع البصير ، فمن عبد غيره فقد كفر ، ومن أشرك معه أحداً فقد ضل عن سواء السبيل ، ومن هنا نقول فى الفاتحة : ( إِيَّاكَ نَعْبُدُ ) أى نخضع ونذل ونعترف بالعبودية لك وحدك ، والشهادة بأن محمداً - صلى الله عليه وسلم - رسول الله معناها إقرار

بأنه مرسل من ربه ، يبلغ الناس شرع الله ، فأوامره هي أوامر الله ، ونواهيه هي نواهي الله ، كما قال تعالى في سورة النجم : ( وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ) ، والإقرار برسالته صلى الله عليه وسلم يقتضى طاعته في تلك الأوامر والنواهي ، لأن طاعته هي طاعة الله الذي أرسله كما قال تعالى في سورة النساء : ( مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ) .

### التكبير :

وقد كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه كما أمره الله ، فكان انعقاد الصلاة بالتكبير في قوله : « الله أكبر » ، ومعناها كما بينه السبط الكريم الإمام الحسين بن عليّ . حين قال له ابن الأزرق : يا حسين ، صف لى إلهك الذى تعبد ، وكان ابن الأزرق على رأس الخوارج الأزارقة فأجابه الإمام الحسين رضى الله عنه : «يا ابن الأزرق أصف إلهى بما وصف به نفسه ، أكبر من أن يقاس بالناس ، أو يدخل تحت القياس ، أو يدرك بالحواس ، قريب غير ملتصق ؛ بعيد غير مستقصى . لا إله إلا هو الكبير المتعال » . فقال ابن الأزرق فى إعجابه بوصفه : قد نبأ الله عنكم أنكم قوم خصمون .

### الأسوة الحسنة :

وتقتضى طاعته صلى الله عليه وسلم الإيمان بكل ما جاء به والتأسى به فى أقواله وأفعاله وأحواله كما قال تعالى فى سورة الأحزاب : ( لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ) ، فهو فى أقواله وأفعاله وأحواله السراج المنير للسالك على الصراط المستقيم ، فمن استنار به كان من أهل الهدى ، ومن خالفه ضل وغوى ، قال تعالى فى سورة الأحزاب : ( يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا . وَيَشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَثِيرًا . وَلَا تَطْعَمِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ) ، والدعوة إلى الله هى الدعوة إلى توحيده سبحانه ،

ومكافحة الذين يصدون عن سبيله ، والسراج المنير استعارة للنور الذى يتضمنه شرعه تعالى ، وقيل سراجاً أى : هادياً من ظلمات الضلالة ، فأنت كالمصباح المضىء ، ووصفه بالإتارة لأن من السرج مالا يضىء ، وقيل معناها أنت ذو سراج منير أى كتاب نير ، وجاز أن يكون وثالياً كتاب الله . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً ومعاداً ، فبعثهما إلى اليمن وقال : « اذهبا فبشراً ولا تنفراً ، ويسراً ولا تعسراً ، فإنه قد أنزل على (يأيها النبي) إنا أرسلناك . . . » .

### الفضل الكبير :

وفى قوله تعالى : (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً) ، يقول ابن عطية - كما جاء فى تفسير القرطبي - قال لنا أبى رضى الله عنه : هذه أرجى آية عندى فى كتاب الله تعالى ، لأن الله تعالى قد أمر نبيه أن يبشر المؤمنين أن لهم عنده فضلاً كبيراً ، وقد بين الله الفضل الكبير فى قوله تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) (١) ، ويقول الإمام القرطبي رضى الله عنه : فالآية فى سورة الأحزاب خير ، والى فى سورة الشورى تفسير لها .

### إنذار العشيبة :

وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عشيرته الأقربين للإسلام فى بداية الدعوة تنفيذاً لقوله تعالى فى سورة الشعراء : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) ، وقد روى مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية (وأنذر عشيرتك الأقربين) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً فاجتمعوا فعمَّ وخصَّ فقال :

« يا بني كعب بن لؤي ؛ أتقذوا أنفسكم من النار ، يا بني مُرّة بن كعب :  
 أتقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد شمس ؛ أتقذوا أنفسكم من النار ، يا بني  
 عبد مناف ؛ أتقذوا أنفسكم من النار ، يا بني هاشم ؛ أتقذوا أنفسكم من النار ؛  
 يا بني عبد المطلب ؛ أتقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة ؛ أتقذى نفسك من النار ،  
 فإني لا أملك لكم من الله شيئاً ، غير أن لكم رحماً سأبليها ببلالها (أى أصلكم صلة  
 الرحم في الدنيا . ولا أغنى عنكم من الله شيئاً في الآخرة إن بقيتم على الكفر) .  
 وبذلك لم يدع صلى الله عليه وسلم حجة لغير أهله في التخلف عن إجابة الدعوة  
 التي دعا إليها .

ويقول الإمام القرطبي رضى الله عنه : في هذا الحديث والآية دليل على  
 أن القرب في الأسباب لا ينفع مع البعد في الأسباب ، ودليل على جواز صلة  
 المؤمن بالكافر ، وإرشاده ونصيحته لقوله صلى الله عليه وسلم : « إن لكم رحماً  
 سأبليها ببلالها » . وقوله عز وجل في سورة الممتحنة : ( لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ  
 يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ  
 إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ) .

وها أنت ذا تراه صلى الله عليه وسلم قد دعاهم إلى الإيمان بالحكمة والموعظة  
 الحسنة . فنفذ في دعوته أمر ربه في سورة الأنعام : ( ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ  
 بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ  
 بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ) ، وقد نزلت تلك الآية الكريمة  
 بحكمة . فتلطفت صلى الله عليه وسلم في دعوتهم ولم يخاشنهم . وقال العلماء  
 إنها محكمة في جهة العصاة من المؤمنين ، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين .

تطور الدعوة إلى الإسلام :

و يقول ابن إسحق في تطور الدعوة إلى الله كما جاء في سيرة ابن هشام :  
 مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله . على ما يلقي من قومه من  
 الخلاف والأذى .

وَأَمِنْتَ بِهِ خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وَصَدَّقَتْ بِمَا جَاءَهُ  
 مِنَ اللَّهِ ، وَأَزْرَتْهُ عَلَى أَمْرِهِ ، وَكَانَتْ أُولَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَصَدَّقَ بِمَا جَاءَ بِهِ ،  
 فَخَفَّفَ اللَّهُ بِذَلِكَ عَنْ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَا يَسْمَعُ شَيْئًا مِمَّا يَكْرَهُهُ مِنْ  
 رَدِّ عَلَيْهِ ، وَتَكْدِيبَ لَهُ ، فَيَحْزَنُهُ ذَلِكَ إِلَّا فَرَجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا إِذَا رَجَعَ إِلَيْهَا ،  
 تَثَبَّتْهُ وَتَخَفَّفَ عَلَيْهِ ، وَتَصَدَّقَهُ وَتَهَوَّنَ عَلَيْهِ أَمْرَ النَّاسِ ، رَحِمَهَا اللَّهُ تَعَالَى .

ثم فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة ، حتى شق ذلك  
 عليه وأحزنه ، فجاءه جبريل بسورة الضحى : ( وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَا •  
 مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى • وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى • وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ  
 رَبُّكَ فَتَرْضَى • أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَآوَى • وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى • وَوَجَدَكَ عَانِلًا  
 فَأَغْنَى • فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ • وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ • وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ  
 فَحَدِّثْ ) : فبشره بأنّه ما جفاه منذ أحبه ، ووعدّه بأن سيُعطيّه النصر  
 في الدنيا - والثواب في الآخرة ، وذكره ما ابتدأه به من الإكرام في يتمه وبخه  
 عن الهدى . فأواه في يتمه ، وهده لأعظم شريعة ، وأغناه من فضله ،  
 فهو لا يتخلى عنه في أى شأن من شؤون الدنيا والآخرة .

ويقول ابن إسحق : حدثني بن كيسان عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى  
 الله عنها قالت :

افترضت الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم أول ما افترضت عليه ركعتين  
 ركعتين كل صلاة ، ثم إن الله أتمها في الحضر أربعاً ، وأقرها في السفر على  
 فرضها الأول ركعتين ؛ وقال السهيلي : ذكر المزي أن الصلاة قبل الإسراء  
 كانت صلاة قبل غروب الشمس وصلاة قبل طلوعها ؛ ويشهد لهذا القول قوله  
 سبحانه : ( وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ) ، وقال يحيى بن  
 سلام مثله . وقال : كان الإسراء وفرض الصلوات الخمس قبل الهجرة بعام ،  
 فعلى هذا يحتمل قول عائشة : « فزيد في صلاة الحضر » . أى زيد فيها حين  
 أكملت خمساً . فتكون الزيادة في الركعات وفي عدد الصلوات ، ويكون قولها :  
 « فرضت الصلاة ركعتين » أى قبل الإسراء ؛ وقد قال بهذا طائفة من السلف

منهم ابن عباس ؛ ويجوز أن يكون معنى قولها : « فرضت الصلاة » أى ليلة الإسراء حين فرضت الخمس فرضت ركعتين ركعتين ، ثم زيد فى صلاة الحضر بعد ذلك ، وهذا هو المروى عن بعض رواة الحديث المتقدم عن عائشة .

### السابقون الكرام :

وذكر ابن إسحق أوائل المسلمين ، فذكر منهم سادتنا : على بن أبى طالب ( وقال إنه أسلم وهو ابن عشر سنين ) وزيد بن حارثة . وأبا بكر الصديق . ثم قال : فلما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه ، ودعا إلى الله وإلى رسوله . وكان رجلاً مؤلفاً لقومه . محبباً سهلاً . وكان أنسب قريش القريش ، وأعلم قريش بها . وبما كان فيها من خير وشر . وكان رجلاً تاجراً ، ذا خلق ومعروف . وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته . فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يعشاه ويجلس إليه .

قال : فأسلم بدعائه فيما بلغنى : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام . وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطليحة بن عبد الله ؛ وقال ابن إسحق : فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس بالإسلام ، فصلّوا وصدّقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جاءه من الله ، ثم أسلم أبو عبيدة بن الجراح . وأبو سلمة . والأرقم . وعثمان بن مظعون وأخوه قدامة وعبد الله . وعبيدة بن الحارث . وسعيد بن زيد وامراته فاطمة بنت الخطاب . وأسما بنت أبى بكر وأختها عائشة وهى يومئذ صغيرة . ونجباب بن الأرت ، وعمير بن وقاص ( أخو سعد ) . وعبد الله بن مسعود . ومسعود بن القارى .

وذكر ابن إسحق بقية هؤلاء السابقين بأسمائهم . فليرجع إليهم من شاء فى سيرة « ابن هشام » . ثم أضاف يقول :

ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالا من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحذّثوا به . وكان بين ما أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين فيما بلغنى من مبعثه . ثم قال الله

تعالى : ( فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ )<sup>(١)</sup> ، وقال تعالى : ( وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۖ وَانْحَضِ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ )<sup>(٢)</sup> ، ( وَقُلْ إِنَّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ )<sup>(٣)</sup> . قال ابن هشام : اصدع اى أفرق بين الحق والباطل ، وقال ابن إسحق : وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا ذهبوا في الشعاب ، فاستخفوا بصلاتهم عن قومهم . ولما بادى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالإسلام ، وصدع به كما أمره الله ، لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه ، حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته إلاّ من عصم الله تعالى منهم بالإسلام ، وهم قليل مستخفون . وحَدِّبَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب ، ومنعه ( أى حماه ) وقام دونه ، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله مظهرًا لأمره لا يرده عنه شيء .

فمشى رجال من أشرف قريش إلى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تُخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه ، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً ، وردّهم ردّاً جميلاً ، فانصرفوا .

### العزم المؤكد :

وحين قالت قريش لأبي طالب هذه المقالة ، بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له :

يا بن أخى . إن قومك قد جاهوفى ، فقالوا لى كذا وكذا ، للذى كانوا قالوا له . فأبقى علىّ وعلى نفسك ، ولا تحمّلنى من الأمر مالا أطيق ، قال : فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه بدا لعمه فيه بدآء ( أى ظهر له فيه رأى ) أنه خاذل له ومُسلّمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه .

(١) سورة الحجر، آية ٩٤ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيات ٢١٤ و ٢١٥ .

(٣) سورة الحجر ، الآية ٨٩ .

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عمّ . والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته . ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكى ، ثم قام - فلما ولّى ناداه أبو طالب فقال : أقبِل يا بن أخي ، قال : فأقبِل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت . فوالله لا أسلمك لشيء أبداً .

أقول ، فما أعظم العزم من سيّد أولى العزم من الرسل ، وكيف لا يكون من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم العزم والمضاء اللذان تصاغر أمامهما في عينه كل من الشمس والقمر ، والتمسك بالدعوة إلى دين الله ، حتى يظهره الله أو يهلك دونه . أما عبراته التي انسكبت ، فهي ليست جزءاً ولا خوفاً ، ولكنها انسكبت أسفاً على قومه أن يصمّوا آذانهم عن دعوة الحق في إصرار واستكبار ، ويشهد لذلك قوله تعالى في سورة الكهف : ( فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ) ، أي مهلك نفسك لحزنك عليهم ، حين فاتهم ما كان يرجو لهم من الإيمان وهو حياة الروح ، وأصروا على الكفر وهو موتها ، ألسنت تراه تعالى يقول في المفارقة بين المؤمن والكافر في سورة الأنعام : ( أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) ، نزلت في المقارنة بين سيدنا حمزة بن عبد المطلب وهو المؤمن ، وأبي جهل الكافر ، وحقاً ما يقول الشاعر الحكيم :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله      فأجسامهم قبل القبور قبور  
وإن امرأ لم يحى بالعلم ميت      فليس له حتى النشور نشور

والنور في الآية الكريمة عبارة عن الهدى والإيمان ، وقال الحسن هو القرآن ، وقيل الحكمة ، وقيل هو النور الوارد في قوله تعالى : ( يَوْمَ تَرَى

الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ..)

وصدق الله العظيم إذ يقول في سورة الأنعام : ( فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ) .

### فضيلة الإيمان :

ولا يخفى على القارئ العزيز أن فضيلة الإنسان كامنة في روحه التي بين جنبه ، فإذا فاته أن تتحلى روحه بالإيمان . فقد فاتته الفضيلة كلها . وصار في حيوانيته البهيمية أضعف من الأسد ، بل من الفيل ، بل من الثور ، بل من الذئب ، ولكنه إذا تحلى بالإيمان وقويت روحه في جنب الله . باهى الله به ملائكة السماء ، والإنسان مركب من ملك وملكوت ، فجسده حيواني من عالم الملك المظلم ، وروحه من عالم الملكوت النوراني الذي خلق الله منه الملائكة ، فإذا قويت غرائزه البشرية الشهوانية كان حيواناً مظلماً ، وإذا قويت إشراقات روحه قاومت شهواته البشرية الظاهرة منها والخفية فانصبغ بصبغة العالم الأسنى - وهو عالم الملكوت - فصارع شيئاً جسمه بين الخلق يسعى . وروحه في الملكوت ترعى ، وتميز في إنسانيته عن بني جنسه كما قيل :

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته      أتطلب الريح مما فيه خسران  
أقبل على النفس واستكمل فضائلها      فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وانظر كيف صورَّ الله تعالى حياة الشهداء في قبورهم مع موت أجسادهم أمام أعيننا حيث يقول تعالى في سورة آل عمران : ( وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ \* فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ) ، في حين يقول سبحانه في شأن الكافرين في سورة النمل : ( إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ \*

وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ) . فتدبر كيف عبر القرآن الكريم عنهم بالموتى وإن تحركت أجسادهم حركة الحياة الظاهرة ، واستمعت آذانهم إلى صوته صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان استماعاً لاهياً عن التدبر والاعتاظ كما يقول تعالى في سورة محمد : ( وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ) ، فالحياة الحقة إذن هي حياة الروح بنور الهدى ولو مات الجسد ، والموت موت الروح بظلمة الكفر ولو عاش الجسد .

فأين استماعهم الصوتى من استماع المؤمنين الروحى الذى قال تعالى واصفاً إياه في سورة الزمر : ( اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ) ، وأحسن الحديث هو القرآن الكريم ، قال سعد بن أبي وقاص : قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل : ( اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ) ، فقالوا لو قصصت علينا ، فنزل في سورة يوسف : ( نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ) ، فقالوا : لو ذكرتنا ، فنزل في سورة الحديد : ( أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ) ، والمتشابه أى يشبه بعضه بعضاً في الحسن والحكمة ويصدق بعضه بعضاً ، فلا يتناقض ولا يختلف ، ومثالى أى تشبى فيه القصص والمواعظ والأحكام ، وثنى للتلاوة فلا يمل القارئ من تكراره ، وتقشع أى تضطرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد والإنذار ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله أى عند آية الرحمة ، وقيل إلى العمل

بكتاب الله والتصديق به ، وقيل إلى ذكر الله يعنى الإسلام .  
 وعن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :  
 « إذا اقشعر جلد المؤمن من مخافة الله ، نحاتت عنه خطاياها كما يتحات  
 عن الشجرة البالية ورقها » ، أى سقطت عنه الذنوب كما تسقط أوراق الشجر  
 فى الحريف ؛ وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 قال : « ما اقشعر جلد عبد من خشية الله إلا حرمه الله على النار » ؛ وعن ثابت  
 البُنْثَانِي رضى الله عنه قال قال فلان :

إني لأعلم متى يستجاب لى ، قالوا : ومن أين تعلم ذلك ؟ قال : إذا اقشعر  
 جلدى ، ووجل قلبى ، وفاضت عيناى ، فذلك حين يستجاب لى .

• • •

ونعود لما كنا فيه من تطوّر الدعوة إلى الإسلام :

قال ابن إسحق : ثم إن قريشاً تدامروا بينهم على من فى القبائل منهم  
 من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أسلموا معه ، فوثبت كل قبيلة  
 على من فيهم من المسلمين يعدّونهم ويفتنونهم عن دينهم ، ومنع الله رسول له صلى  
 الله عليه وسلم منهم بعمه أبى طالب . . .

وقد حاول طغاة الكفار أن يجدوا مغزاً فى رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 فأعياهم البحث عن مغز فىه ، ثم اجتمعوا على باطل من تفكيرهم فأحبط الله  
 كيدهم ، وإليك ما يحكيه ابن إسحق :

« ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ،  
 وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود  
 العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً  
 ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويردّ قولكم بعضه بعضاً ،

« قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به . قال : بل أنتم  
 فقولوا أسمع ،

« قالوا : نقول : كاهن ، قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ،

فما هو بززمة (١) الكاهن ولا سحجه ،

« قالوا : فنقول : مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ،  
فما هو بختفه ولا تخالجه ولا وسوسته ،

« قالوا : فنقول : شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله  
رجزه وهزجه وقربضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر ،

« قالوا : فنقول : ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرمهم ،  
فما هو بنفثهم ولا عقدهم (٢) ،

« قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله  
لعذق (٣) ، وإن فرعه لحناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن  
أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر ، جاء بقول سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين  
المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك .

« فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم ، لا يمرّ بهم أحد إلا حذروه  
إياه ، وذكروا لهم أمره ،

« فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغيرةِ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمَدثرِ : ( ذَرِنِي  
وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً \* وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً \* وَبَنِينَ شُهُوداً \* وَمَهَدْتُ لَهُ  
تَمْهيداً \* ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ \* كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً \* سَأَرْهِقُهُ  
صَعُوداً \* إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ \* فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ \* ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ \* ثُمَّ نَظَرَ \*  
ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ \* ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ \* فَفَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ \* إِنَّ  
هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ \* سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ) .

قال ابن إسحق : « وأنزل الله تعالى في النفر الذين كانوا معه يصنّفون

( ١ ) الززمة هي الكلام الخفى الذى لا يسمع .

( ٢ ) إشارة إلى ما كان يفعله الساحر ، بأن يعقد خيطاً ثم ينفث فيه ، ويشير لذلك قوله تعالى  
(ون شر النفثات فى المقد) .

( ٣ ) الـة ، بالفتح الخلة ، يشبه بالنخلة التى ثبت أصلها وقوى وطاب فرعها إذا جنى .

القول في رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيما جاء به من الله تعالى : ( كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ \* الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ \* فَوَرَّبُّكَ لِنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ \* عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ )<sup>(١)</sup> قال ابن هشام واحدة العضين عضه يقول عضوه أى فرقوه .

قال ابن إسحق : « فجعل أولئك نفر يقولون ذلك في رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن لقوا في الناس ، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها » .

أقول : وصدق الشاعر الحكيم في قوله :

وإذا أراد الله نشر فضيلة      طويت أتاح لها لسان محسود

قال ابن إسحق : « فلما انتشر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في العرب وبلغ البلدان ، ذكر بالمدينة ولم يكن حتى من العرب أعلم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر ، وقيل أن يذكر ، من هذا الحى من الأوس والخزرج ، وذلك لما كانوا يسمعون من أخبار اليهود ، وكانوا لهم حلفاء ومعهم في بلادهم .

ثم إن قريشاً اشتد أمرهم للشقاء الذى أصابهم في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أسلم معه منهم ، فاغروا برسول الله صلى الله عليه وسلم سفهاءهم ، فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكنهانة والجنون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مظهر لأمر الله لا يستخفى به ، معاد لهم بما يكرهون من عيب دينهم ، واعتزال أوثانهم ، ورفاقه إياهم على كفرهم .

أقول : وكيف يعبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذاهم واستهزأهم وقد قال له ربه في سورة المدثر : ( وَكِرْبُكَ فَاصْبِرْ ) كما قال له في سورة الأحزاب : ( وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ) ؛ وإذا أردت أن ترى مثلاً من ثباته وشجاعته فاستمع إلى ما يحكيه ابن إسحق عن يحيى بن عروة ابن الزبير عن أبيه عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال :

(١) سورة الحجر ، الآيات ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ .

« قلت له ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانوا يظهرين من عداوته ؟ قال : حضرتهم وقد اجتمع أشرفهم يوماً في الحِجْر<sup>(١)</sup> ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، سفته أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، أو كما قالوا ،

« فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن ، ثم مرّ بهم طائفاً بالبيت ، فلما مرّ بهم غمزوه<sup>(٢)</sup> ببعض القول ، قال : فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ثم مضى فلما مرّ بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مرّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فوقف ، ثم قال صلى الله عليه وسلم :

“ أسمعون يا معشر قريش ، أما والذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بالذبح ”  
 « قال فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة ( أى وصية ) قبل ذلك ليرفؤه ( يهدئه ويسكنه ) بأحسن ما يجد في القول ، حتى إنه ليقول انصرف يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولاً .

« قال : فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحِجْر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه ، فبيناهم في ذلك طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول كذا وكذا ، لما كان يقول في عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” نعم ، أنا الذي أقول ذلك “ ،

قال : فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع رداءه — قال : فقام أبو بكر رضى الله عنه دونه وهو يبكي ويقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ، ثم انصرفوا عنه ، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط .

( ١ ) أى حِجْر إسماعيل بالكعبة .

( ٢ ) أى طعنوا فيه .

ويقول ابن إسحق :

« فلما أسلم حمزة<sup>(١)</sup> عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه » .  
أقول : وهالك أبياتاً في الشعر قالها سيدنا حمزة رضى الله عنه معتزاً بإسلامه حين أسلم :

حمدت الله حين هدى فؤادى      إلى الإسلام والدين الحنيف  
لدين جاء من رب عزيز      خبير بالعباد بهم لطيف  
إذا تليت رسائله علينا      تحدر دمع ذى اللب الحصيف  
رسائل جاء أحمد من هداها      بآيات مبينة الحروف

روعة القرآن :

قال ابن إسحق :

« حدثت أن عتبة بن ربيعة — وكان سيداً — قال يوماً وهو جالس في نادى قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده :  
يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء وكيف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد قُسم إليه فكلمه

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا بن أخي إنك منا حيث قد علمت من السبطة<sup>(٢)</sup> في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفّهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .

(١) هو سيدنا حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان كما وصفوه أعز قتي في قريش وأشدّهم بأساً .  
(٢) أى الشرف .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قل يا أبا الوليد ، أسمع " ، قال :  
يا بن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا  
حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا تقطع أمراً دونك ،  
وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك ربيّاً<sup>(١)</sup> تراه  
لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبدلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه .  
فإنه ربما غلب التابع<sup>(٢)</sup> على الرجل حتى يداوى منه .

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال :

" أقد فرغت يا أبا الوليد " ؟ قال نعم ، قال : " فاسمع مني " ، قال :  
افعل ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (سورة فصلت) :

( بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ • حَم • تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ •  
كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ • بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ  
أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ • وَقَالُوا فُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي  
آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ • قُلْ إِنَّمَا  
أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ  
وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ • الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ • إِنَّ الَّذِينَ  
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ) ، ثم مضى رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فيها يقرأها عليه ، فلما سمعها منه عتة أنصت لها ، وألقى يديه  
خلف ظهره ، معتمداً عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه  
وسلم إلى السجدة منها ، وهي قوله تعالى : ( وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ  
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ  
إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ • فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ

(١) ما يترامى للإنسان من الجن .

(٢) أى الذى يتبع الناس من الجن .

وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ) . فسجد وكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فانت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نخلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال : ورائى أنى قد سمعت قولاً ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكون لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فلكم ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم .  
قال ابن إسحق :

« ثم إن الإسلام جعل يفسو بمكة فى قبائل قريش من الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين » .

#### التحدى بالأسئلة :

أقول ملخصاً مما رواه ابن إسحق بسنده : وبلغ من تحديهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم أرسلوا وفداً من مكة إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فلما جاء الوفد إلى أحبار اليهود قالوا : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، فقالت أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فروا فيه رأيكم .

سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجب ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هى ؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي ، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم .

فرجع الوفد إلى مكة ، وجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن تلك المسائل فنزلت في إجابتهم سورة الكهف ، فتعرضت لقصة أهل الكهف ، ولقصة ذى القرنين تفصيلاً ، وقال تعالى في سورة الإسراء عن الروح : ( وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ) .

قال ابن إسحق : « وحدثت عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، قالت أحبار اليهود : يا محمد أرايت قولك : ( وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ) إيانا تريد ؟ أم قومك ؟ قال : كلا ، قالوا : فإنك تتلوفيا جاهك أنا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنها في علم الله قليل ، وعندكم في ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه .

قال فأنزل الله تعالى فيما سأله عنه من ذلك في سورة لقمان : ( وَكَوْاْنُ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ) .

#### معرفة الله تعالى :

أقول : والروح - كما عرفنا الله - هي سر من أسرار الله ، وهي من أمره ، يودعها الله أجسادنا بقدرته ونحن أجنة في بطون أمهاتنا ، ويتكلم عن بعض خواصها - دون ذاتها - سيدي ابن عطاء الله السكندري فيقول رضى الله عنه :

« إن معرفة الله فطرية في النفس ، ويستند في ذلك كما سلف القول إلى قوله تعالى في سورة الأعراف : ( وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ) .

ويستطرد قائلاً :

« فلما هبطت الأرواح في الأبدان ، احتجبت المعرفة الفطرية بالله بحجاب البشرية الكثيف ، فستر الله بذلك سر خصوصيته ، وجاء في حكمه رضى الله عنه : سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور البشرية : وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية » .

ثم أضاف رضى الله عنه يقول :

«ومن هنا كانت المعرفة بالله أعسر المعارف ، فإنه لا مثل لله ( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ) ، ومع هذا فرض الله على عباده جميعاً معرفة ذاته وأسمائه وصفاته ، ويفصل ذلك فيقول :

« والمعرفة بالله قد تكون إثبات وجوده وتقديسه عما لا يليق به ، ووصفه على ما هو عليه وبما وصف به نفسه ، وهذه معرفة عامة المكلفين ، وهي مفروضة عليهم ، وتسمى بالمعرفة العامة ،

« وقد تكون حالاً يحدث من شهود ذوقى ، ويكون العارف هو من أشهده الله ذاته وصفاته وأسماءه وأفعاله ، وتسمى هذه المعرفة بالمعرفة الخاصة ، وهي معرفة الصوفية التي لا تستند إلى العقل وإنما تستند إلى الذوق » .

ويقول رضى الله عنه : « ولما كانت المعرفة الفطرية قبساً من نوره أودعه قلوب أوليائه ، فإنها لن تأفل أبداً ، وليست كذلك المعرفة التي تأتي عن طريق النظر في الآثار فهي تأفل بأفول الآثار » .

ويرى سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه أن القلب كلما زهد في الدنيا ( بمعنى طرحها من قلبه لا من يده ) وانعدم منه الهوى والحرص والأمل ، وازداد إيمانه ، ثم توحيده ، امتلاً بالتوحيد فصار عرشياً ، وتنزه عن أوصاف البشرية تماماً ، وشرفت في الملائكة الأعلى صفاته ، وعلت رسمت في الملائكة الأسفل واكتملت بنور اسم الذات بصيرته ، وتخلق بأخلاق الله ( أى على قدر بشريته فيكون مثلاً رؤوفاً أو رحيماً على قدره كما شاء له الله من الرأفة والرحمة ،

أما الصفات القديمة الأزلية فله وحده سبحانه . وصارت الأسماء الحسنى وصفه ونعته ، وصار محققاً مستبصراً فانياً في شهود المذكور عن ذكره . ويضيف رضى الله عنه قائلاً : وفى هذا القلب ورد فى الحديث القدسى لا يسعنى عرشى ولا كرسى ولا سماءى ووسعنى قلب عبدى .

ويعلمنا رضى الله عنه معنى الحديث المتقدم فيقول فى روعة ظاهرة :  
« إن قلب الإنسان لا يسع الله مساحة ، ولا خيالاً ، ولا حلولاً . ولا حسناً ، ولا حكماً ، وإنما يسعه توحيداً ، وإيماناً ، وعلماً . ومعرفة ، وإيقاناً ، ومحبة ، وإخلاصاً ، فضلاً من الله وتخصيصاً » .

ويقول شيخى وسيدى العارف بالله الشيخ على عقل طيب الله تراه ، فيما نقلناه عنه من حكمه الملهمة لوقتها دون إعمال فكر مما يعطيه الله خواص أوليائه :

واكتحال العيون أيسر شىء      واكتمال القلوب صعب المنال  
هو ذكرٌ ورغبةٌ وشهوةٌ      ووفاءٌ للخالق النعمال

ومن ذلك نرى أنه لا بد من صبر ومصابرة ، وجهد ومجاهدة للوصول إلى معرفة الله جل جلاله ، وليس بينك وبينه تعالى مسافة تقطعها حتى تصل إليه ، وإنما الوصول هو أن تصل إلى حضرة تشهد فيها بمذاقك أن لا فاعل إلا الله ، لأنه لا إله سواه . والكلمة علواً فهم فى قبضة عزته . ليس لهم من أمورهم إلا ما شاء الله وقضاه . كما يقول أمير الشعراء شوق رحمه الله :

سبحانه الملك إليه وله      يؤتبه أو ينزعه ممن يشا

### الروح والمادة :

وما دمتا فى وادى الروح وما حياها الله به . فلنقرأ روائع جادت بها قريحة شاعر المسلمين العبقري السيد محمد إقبال الباكستانى رحمه الله ، وقد ترجم كلامه إلى العربية صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان مد الله فى عمره :

ودنيا الروح سكر بالمعانى      وصحو بالرقى وبالمعالى

فغش للروح في دنيا وأخرى  
وإن أمسيت الأموال عبداً  
وإن أصبحت في الأكوان حرّاً  
وكسب المال للمخلوق حق  
وإن المال قد يأتي ويمضي  
تفزر بالعالمين بلا زوال  
فقدتهما معاً في كل حال  
فأنت من الكمال إلى كمال  
ولكن لا تبع شرفاً بمال  
وأنت وما ملكت إلى ارتحال

وإن أردت كيف يشهد الأولياء ربهم فتعلق به أرواحهم في جميع أوقاتهم ،  
فتسعد بذلك الشهود السعادة الحقة ، فاستمع إلى ما قاله لإماماً لوقته سيدى وشيخى  
الشيخ على عقل ، نور الله ضريحه ، ونقلناه عنه ، وهو يريك كيف تعلق بربه  
واتجه إليه في كل أوقاته :

قبلتى في الصلاة ساعة وقت  
إنما قبلتى جميع حياتى  
فسأنى مع اليقين نهار  
طاف بنور فالمعارف بحرى  
وارتقاء الأرواح في مورد العلم  
وانعدام الأهواء والحس منها  
يا سرورى بقوله يا عبادى  
كم مصلّى بعد الصلاة تلاهى  
هى ذات الإله إن أنماها  
ونهارى سعادة برضاها  
تلفظ الدر وهى لا تنهاى  
يُصنقى الأرواح من دنياها  
هو معنى السموفى مسراها  
أنا فى سمعها أنال رضاها

وما دامت العناية الإلهية قد أسعدتك بالإيمان بالله من قبل أن يكون منك  
عمل ، فلماذا لا تسأل الله المزيد من فضله كما فعل سيدى ابن عطاء الله فى  
مناجاته :

« إلهى ، هذا ذلى ظاهر بين يديك ، وهذا حالى لا يخفى عليك . منك  
أطلب الرضول إليك . وبك أستدل عليك ، فاهدنى بتورك إليك ، وأقضى بصدق  
العبردية بين يديك .

« إلهى : أغنى بتديرك عن تدبيرى ، وباختيارك عن اختياري ، وأوقفنى على  
مراكز اضطرارى ،

« إلهى : بك أستنصر فانصرنى ، وعليك أتوكل فلا تكنى ، وإياك أسأل

فلا تخينني ، وفي فضلك أرغب فلا تحرمني ، ولجنابك أنتسب فلا تبعدني ،  
وببابك أقف فلا تطردني ،

« أنت الذى أشرفت الأنوار فى قلوب أوليائك حتى عرفك ووجدك ،  
وأنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ، ولم يلجأوا إلى  
غيرك ، أنت المؤمنس لهم حيث أوحشتهم العوالم ، وأنت الذى هديتهم حتى  
استبانتم لهم المعالم ؛

« ماذا وجد من فقدك ؟ وما الذى فقد من وجدك ؟ لقد نحسر من بغى عنك  
متحولاً ، وقد خاب من رضى دونك بدلاً ، كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت  
الإحسان ، أم كيف يطلب غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان .

وإذا أردت أن تصدق فى عبوديتك لله ، فاستمع إلى ما ينصحك به رضى الله  
عنه فى قوله :

«تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه، تحقق بذلِّك يمدك بعزته، تحقق بعجزك يمدك  
بقدرته ، تحقق بضعفك يمدك بجوله وقوته ،

« كيف يشرق قلوب صور الأكوام منطبعة فى مرآته ( أى أعطى المادة كل  
اهتمامه وتجاهل أمر الروح ) أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته ، أم كيف  
يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ، أم كيف يرجو أن يفهم  
دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته » .

ثم انظر كيف اشتغل سيدى وشيخى الشيخ على عقل عن الناس وعيوبهم  
بجب ربه الأعلى ، فقال رضى الله عنه فى إلهامه القورى :

أملى فى الله يقبلنى	فسوى الرحمن لم أرمُ
أنا من حبي لحضرتة	تارك للناس كلهم
أنا من حبي لحضرتة	لم أفق من لذة النغم
لم أزل فى حى حضرتة	مرتعاً للعلم والحكم
وفؤادى من هدايته	يرتوى من مورد الكرم
وبقلبي من محبته	همة من أعظم الهمم

هاجنى وجلي وبه حرق  
بل هي الأنوار يقذفها  
لم تكن من شهدة الضرم  
فسرت في مهجتي ودي

وإذا أردت أن تعرف كيف اغتنى بربه تعالى واستغنى عن الناس فاستمع إلى قوله :

فتشت كل الخلق عن علم فلم  
فركت كل العالمين وجنته  
أرلى سوى رب السما من وال  
وجعلت ذكرى ذاته منوالى

### آفات النفس :

وهو بعد ذلك يشرح لنا كيف نحذر أنفسنا ونجاهدها في تزكية أرواحنا ،  
مصدقا لقوله تعالى في سورة النازعات : ( وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى  
النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ) ، فيقول رضى الله عنه وكان  
أحد الحاضرين سأله أن يأتى له بأبيات من إلهامه الفورى على وزن البيت  
الآتى ووافيته :

عجباً لها تهوى الذى تهوى به  
فكان مما قاله فوراً من إلهامه المتدفق ونقلناه عنه :

عجباً لها تهوى الذى تهوى به  
تأى عن الإصلاح طول حياتها  
تدعى لتأدية الصلاة وإئتما  
وقفت على الدينار حسن بلائها  
قد رحبت بالسيئات مريضة  
جهلت طريق الخير وادعت الهدى  
ضحكت على جهالها فتوهموا  
ظنوا بنفسهمو الكمال وإئتما  
فنحا مسيلمة النبوة وانتهى  
والنفس ما برحت تفضل وما بها  
فانصح لنفسك فى الأمور لعلها  
ترضى تسفلها لكل تقبصة

كم عالم قد زل من نزعاتها  
وتواصل الإقبال فى شهواتها  
شغلت بغير الله حين صلاتها  
فأمالها عن هديها وهداتها  
وتضحج إن دعيت إلى حسناتها  
كم تكثر الدعوى على قرباتها  
أن العلا والفوز فى نزواتها  
تتوافق الجلهاء فى غاياتها  
فرعون للتأليه من عثراتها  
نور يريح النفس من ظلماتها  
قد ترزق الأنوار فى سبحاتها  
دون الذى تعلو به فى ذاتها

## تعنت الكفار :

وإذا أردت أن ترى كيف جمحت بالكفار نفوسهم ، ونأت في جموحها عن اتباع دعوة الحق ، فاقراً ما وصف به الله تعالى موقفهم من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله الكريم في سورة الفرقان :

(وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمَشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا \* أَوْ يُدْعَى إِلَيْهِ كَنُزُّ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا \* أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا \* تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا) .

فانظر كيف عموا بالحس والمادة عن الروح وأنوارها ، فإن خصوصية الرسل عليهم صلوات الله وسلامه في بواطنهم وإن شاركونا في بشريتهم ، قال تعالى في سورة الكهف : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ) فهو إن كان بشراً مثلنا من حيث جنسه ، فإنه تميز عنا بوحى يوحى إليه ربه ، ليبلغه إلينا بأمره سبحانه، ويشهد لذلك قوله تعالى في سورة المائدة : (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) .

وقد رد الله تعالى على قولهم المتقدم فقال تعالى في سورة الفرقان : (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) ، وفي ذلك دفاع قوى عن رسول الله ، وتسلية له صلى الله عليه وسلم .

واقراً مرة أخرى ما حكاها الله عن عنادهم وجحودهم وإصرارهم في قوله تعالى  
في سورة الإسراء :

(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً • أَوْ تَكُونَ  
لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا • أَوْ تُسْقِطَ  
السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا • أَوْ يَكُونَ  
لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرِيقِكَ حَتَّى تُنَزَّلَ  
عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) .

ولو أنهم رشدوا لا اكتفوا بمعجزة القرآن التي تحدى بها الله تعالى الإنس  
والجن ، وقال في تحديه لهم في سورة الإسراء : ( قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ  
وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ  
لِبَعْضٍ ظَهِيرًا • وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ  
النَّاسِ إِلَّا الْكُفُورًا ) . ولكنهم تجاهلوا الحق ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ؛  
وسفقت عقولهم فيما طلبوا ، فإنهم طلبوا فيما طلبوا كما رأيت تدمير الكون  
في قولهم : ( أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْسَفًا ) ، أى قطعاً ،  
ولو سقطت عليهم لهلكوا جاحدين ، وقد منَّ الله على الناس بإمساكه السماء  
أن تقع على الأرض في قوله تعالى في سورة الحج : ( وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ  
تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ) وبلغ بهم الجحود أن يقولوا ... ( ... أَوْ تَأْتِيَ  
بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ) ، أى كفيلاً وشاهداً على صدق ما تدعيه .

وقد ذكرني تحديهم العنيد بنكتة طريفة وقعت بين معاوية بن  
أبي سفيان ورجل يمني ، فقد دخل اليمنى على معاوية ، فقال معاوية مازحاً معه :  
ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة ( يقصد بها بلقيس ملكة سبأ )  
فرد الرجل عليه في ذكاء واضح قائلاً : أجهل من قومي قومك الذين حكى

الله عنهم فقال تعالى في سورة الأنفال : (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوِ اثْبِتْنَا بِعَذَابِ الْيَمِّ) . فهلاً قالوا : فاهدنا إليه .

وتعود إلى ما يحكيه ابن إسحق :

« فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه فيما حدث ، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوهم عما سألوهم عنه ، حال الحسد بينهم وبين اتباعه وتصديقه ، فعتوا على الله ، وتركوا أمره عياناً ، ولجوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم :

( لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ )<sup>(١)</sup> ، أى اجعلوه لغواً وباطلاً ، واتخذوه هزواً لعلكم تغلبونه بذلك ، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يوماً غلبكم .

فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلى ، استرق السمع دونهم فرقاً<sup>(٢)</sup> منهم ، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ، ذهب خشية أذاهم فلم يستمع ، وإن خفض رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته ، فظن الذى يستمع أنهم لا يستمعون شيئاً من قراءته ، وسمع هو شيئاً دونهم ، أصاخ له يستمع منه .  
وأضاف ابن إسحق يقول :

حدثني داود بن الحصين مولى عمرو بن عثمان ، أن عكرمة مولى ابن عباس حدثهم أن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما حدثهم : إنما أنزلت هذه الآية : ( وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا )<sup>(٣)</sup> من أجل أولئك النفر ، يقول : لا تجهر بصلاتك فيتفرقوا عنك ، ولا تخافت بها فلا يسمعها من يجب أن يسمعها ممن يسترق ذلك دونهم ، لعله يرعوى إلى بعض ما يسمع فينتفع به .

(٢) خوفاً .

(١) سورة فصلت ، الآية ٢٦ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ١١٠ .

قال ابن إسحق :

« وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق الثقفي ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، كل لا يعلم بإمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ( لام بعضهم بعضاً ) وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رأيكم بعض سفهائكم لأوقعم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .

« حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا تبرح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

« فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج ، حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . فقال يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك .

« قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل . فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم . ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تمأذينا<sup>(١)</sup> على الرُّكْب . وكنا كفرسى رهان . قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمضى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدق . قال : فقام عنه الأخنس وتركه .

(١) أي جلسنا ، والمأذى والمأذى سواء .

قال ابن إسحق :

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله قالوا : هزءون به - (قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ) لا نفقهه ما تقول ؛ (وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ) ، لا نسمع ما تقول : (وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ) ، أى سائر قد حال بيننا وبينك ، (فَاعْمَلْ) بما أنت عليه (إِنَّا عَامِلُونَ) (١) بما نحن عليه ، إنا لا نفقه عنك شيئاً ، فأنزل الله عليه في ذلك قوله تعالى : (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا) وجعلنا على قلوبهم أكنةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا . أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا . وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا . قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا . يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٢) .

أقول : فانظر كيف نفروا من توحيد الله حيث أصروا عناداً على الكفر ، والحظ كيف غابت عقولهم عن آية الله في إيجادهم ، فاستبعدوا أن يعيدهم بقدرته في الآخرة ؛ ولو فكروا تفكيراً سليماً في الرد على سؤالهم : (مَنْ يُعِيدُنَا) ، وهو قوله تعالى : (قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) لرشدوا . ولكنهم بدل أن

(١) سورة فصلت ، الآية ٥

(٢) سورة الإسراء ، الآيات من ٤٥ إلى ٥٢ .

يتفكروا لووا رؤوسهم تعجباً واستهزاء من أمر البعث بعد الموت ، فكانوا من أصحاب النار ، والعياذ بالله .

وما أروع ما يقول إمامنا على بن أبي طالب : عجبت لمن شك في الله وهو يرى خلق الله ، وعجبت لمن شك في الموت وهو يرى الموتى ، وعجبت لمن شك في النشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى ، وعجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء .

### البحث عن الحق :

ويتكلم سيدى الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى فى كتاب « الفتوحات » عن المفكرين الباحثين عن الحق من غير هوى فى نفوسهم ، فىقول فى الباب السادس والستين :

بحثوا عن حقائق نفوسهم لما رأوا أن الصورة الجسدية إذا ماتت ما نقص من أعضائها شىء ، فعلموا أن المدرك والمحرك لهذا الجسد إنما هو أمر آخر زائد عليه ، فبحثوا عن ذلك الأمر الزائد فعرفوا نفوسهم ، ثم رأوا أنها تعلم بعدما كانت تجهل ، فعلموا أنها إن كانت أشرف من أجسادها فإن الفقر والفاقة يصحبها ، فاعتلوا بالنظر من شىء إلى شىء ، وكلما وصلوا إلى شىء رأوه مفتقراً إلى شىء آخر ،

حتى انتهى بهم النظر إلى شىء لا يفتقر إلى شىء ، ولا مثله شىء ، ولا يشبهه شيئاً ، ولا يشبهه شىء ، فوقفوا عنده وقالوا : هو الأول ، وينبغى أن يكون واحداً لذاته من حيث ذاته ، وأن أوليته لا تقبل الثانى ، ولا أحديته ، لأنه لا شبه له ولا مناسب ، فوحدوه توحيد وجود ،

ثم لما رأوا أن الممكنات لأنفسها لا ترجع لذاتها . علموا أن هذا الواحد أفادها الوجود ، فافتقرت إليه وعظمت به بأن سلبت عنه جميع ما تصف ذواتها به ، فهذا حد العقل ، فبينما هم كذلك ، إذ قام شخص من جنسهم لم يكن عندهم من المكانة فى العلم ، بحيث إن يعتقدوا فيه أنه ذو فكر صحيح ونظر صائب . فقال لهم : أنا رسول الله إليكم ، فقالوا : الإنصاف أولى ، انظروا فى نفس دعواه ، هل ادعى

ما هو ممكن أو ادعى ما هو محال ؟ فقالوا إنه قد ثبت عندنا بالدليل أن الله فيضاً إلهياً يجوز أن يمنحه من يشاء ، كما أفاض ذلك على أرواح هذه الأفلاك ، وهذه العقول ، والكل قد اشركوا في الإمكان ، وليس بعض الممكنات بأولى من بعض ، فيما هو ممكن ، فما بقي لنا نظر إلا في صدق هذا المدعى أو كذبه ، ولا تقدم على شيء من هذين الحكمين بغير دليل فإنه سوء أدب مع علمنا ،

فقالوا : هل لك دليل على صدق ما تدعيه ؟ فجاءهم بالدلائل . فنظروا في دلالته وفي أدلته ، ونظروا أن هذا الشخص ما عنده خبر مما تنتج الأفكار ولا عرف منه ، فعلموا أن الذي أوحى في كل سماء أمرها كان مما أوحاه في كل سماء وجود هذا الشخص وما جاء به ، فأسرعوا إليه بالإيمان وصدقوه . وعلموا أن الله قد أطلعه على ما أودعه في العالم العلوي من المعارف ما لم تصل إليه أفكارهم ، ثم أعطاه من المعرفة بالله ما لم يكن عندهم ، ورأوا نزوله في المعارف بالله إلى العايم الضعيف<sup>(١)</sup> الرأي بما يصلح لعقله في ذلك ، وإلى الكبير العقل الصحيح النظر بما يصلح لعقله في ذلك ، فعلموا أن الرجل عنده من الفيض الإلهي ما هو وراء طور العقل . وأن الله قد أعطاه من العلم به والقدرة عليه ما لم يعطه إياهم ، فقالوا بفضلته وتقديره عليهم ، وآمنوا به وصدقوه ، واتبعوه ، فعين لهم الأفعال المقربة إلى الله تعالى ، وأعلمهم بما خلق الله من الممكنات فيما غاب عنهم ، وما يكون منه سبحانه في المستقبل . وجاءهم بالبعث والنشور والحشر والجنة والنار ،

ثم إنه تتابعت الرسل على اختلاف الأزمان واختلاف الأحوال ، وكل واحد منهم يصدق صاحبه . ما اختلفوا قط في الأصول التي استندوا إليها وعبروا عنها وإن اختلفت

(١) ولذلك ترى القرآن الكريم يخاطب الناس على قدر عقولهم ، فخاطب العوام بالمحسوسات كما بينا من قبل : ( أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ) ويخاطب العلماء بالعلم فيقول تعالى : ( أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ) . ويخاطب الأنبياء في أنفسهم فيقول تعالى لتبيننا عليه الصلاة والسلام : ( وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ) .

الأحكام فنزلت الشرائع ونزلت الأحكام، وكان الحكم بحسب الزمان والحال كما قال تعالى: (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا) (١)، فاتفقت أصولهم من غير خلاف في شيء من ذلك، وفرقوا في هذه السياسات النبوية المشروعة من عند الله، بينها وبين ما وضعت الحكماء من السياسات الحكيمية التي اقتضاها نظرهم، وعلموا أن هذا الأمر أتم، وأنه من عند الله بلا شك، فقبلوا ما أعلمهم به من الغيوب وآمنوا بالرسول، وما عاند أحد منهم إلا من لم ينصح نفسه في علمه واتباع هواه، وطلب الرياسة عن أبناء جنسه، وجعل نفسه وقدره، وجعل ربه، فكان أصل وضع الشريعة في العالم وسببها طلب صلاح العالم، ومعرفة ما جهل من الله مما لا يستقل به العقل من حيث نظره، فنزلت بهذه المعرفة الكتب المنزلة، ونظمت بها السنة الرسل والأنبياء عليهم السلام، فعملت العقلاء عند ذلك أنه نقصها من العام بالله. أمور تمتتها لهم الرسل.

وهو كلام نفيس، فليحرص القارئ الكريم على تفهمه والانتفاع به.

ونعود لتاريخ الدعوة للإسلام فنقول:

### اشتداد الأذى:

قال ابن إسحق: «ثم إنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يتصلب لهم ويعصمه الله منهم.

### الهجرة إلى الحبشة:

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله، ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعه مما هم فيه من البلاء، قال لهم:

(١) سورة المائدة، الآية ٤٨.

« لو أخرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » ، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة في الإسلام .

أقول : وكان ممن هاجر الهجرة الأولى للحبشة سيدنا عثمان بن عفان وزوجته السيدة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيدنا الزبير بن العوام ، وسيدنا مصعب بن عمير ، وسيدنا عبد الرحمن بن عوف ، وسيدنا أبو سلمة بن عبد الأسد وزوجته السيدة أم سلمة ، وسيدنا عثمان بن مظعون ، وسيدنا جعفر ابن أبي طالب وزوجته السيدة أسما بنت عميس ، رضى الله عن جميعهم وعن سائر المهاجرين .

ويقول ابن إسحق : فكان جميع من لحق بأرض الحبشة ، وهاجر إليها من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً وولدوا بها ، ثلاثة وثمانين رجلاً .

### ائتمار قریش بمهاجری الحبشة :

حدث ابن إسحق بسنده عن أم سلمة رضى الله عنها قالت :

لما نزلنا أرض الحبشة ، جاورنا بها خير جار النجاشي ، أميناً على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ، لانيؤذي ولانسمع شيئاً نكرهه ، فلما بلغ ذلك قریشاً ، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدتين ، وأن يردوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وكان أعجب ما يأتيه منها الأدم ( الجلد ) فجمعوا له أدماً كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقه بطريقاً إلا أهدوا له هدية ،

ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص (أى قبل اعتناق الإسلام) وأمرهما بأمرهم وقالوا ذمنا : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم ، ثم قدما إلى النجاشي هداياه ، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم ، قالت : فخرجنا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار عند خير جار ، فلم يبق من بطارقه بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي ، وقالوا

لكل بطريق منهم : إنه قد ضوى (لجأ) إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مبتدع ، لانعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عينًا ( أى أدرى بهم) وأعلم بما عابوا عليهم ، فقالوا لهما : نعم .

ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما ، ثم كلماه فقالا له :

أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعه ، لانعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرتهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينًا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي ، قالت : فقالت بطارفته حوله : صدقًا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينًا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليردهم إلى بلادهم وقومهم .

قالت : فغضب النجاشي ثم قال : لاها الله ، إذن لا أسلمهم إليهما ، ولا يسكاد قوم جاوروني ، ونزلوا بلادى ، واختاروني على من سواى حتى أَدعُوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنن جوارهم ما جاوروني .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم كائنًا في ذلك ما هو كائن .

فلما جاءوا ، وقد دعا النجاشي أساقفته ، فنشروا مصاحفهم حوله ، سألم فقال لهم : ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ، ولا في دين أحد من هذه الملل ؟

## جعفر يشيد بالإسلام :

قالت : فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب رضوان الله عليه فقال له :  
 « أيها الملك . كنا قومًا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ،  
 ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ،  
 فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته  
 وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه  
 من الحجارة والأوثان ،

« وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ،  
 والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفحشاء ، وقول الزور ، وأكل مال  
 اليتيم ، وفذف المحصنات .»

« وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ،  
 قالت : فعدد عليه أمور الإسلام . فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ،  
 فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرمتنا ما حرم علينا . وأحللنا ما أحل لنا ،  
 فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من  
 عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا  
 وضيعوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ،  
 ورجعنا في جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

قالت : فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟

قالت : فقال له جعفر : نعم ، فقال له النجاشي : فأقرأه عليّ ، قالت  
 فقرأ عليه صدرًا من كهيعص .

قالت : فبكى والله النجاشي حتى اخضلت ( ابتلت ) لحيته ، وبكت أساقفته  
 حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال لهم النجاشي : إن هذا  
 والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم  
 إليكما ولا يكادون .

قالت : فلما خرجنا من عنده ، قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غداً عنهم

بما أستأصل خضرأهم ، قالت : فقال له عبد الله بن أبي ربيعة ، وكان أتى الرجلين فينا . لا تفعل ، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا ، قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد ،

قالت : ثم غدا عليه من الغد ، فقال له : أيها الملك ، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل إليهم فسألهم عما يقولون فيه ، قالت : فأرسل إليهم ليسألهم عنه ، قالت : ولم ينزل بنا مثلها قط ، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول والله ما قال الله ، وما جاءنا به نبينا ، كائناً في ذلك ما هو كائن .

قالت : فلما دخلوا عليه ، قال لهم : ما ذا تقولون في عيسى بن مريم ؟ قالت : فقال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم ،

يقول : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، قالت : فضرب النجاشي بيده إلى الأرض ، فأخذ منها عوداً ثم قال : والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود ( أى بمقدار هذا العود ) قالت : فتنافرت بطارفته حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي - والشيوم الآمنون - من سبكم غرم ، ثم قال من سبكم غرم ، ثم قال : من سبكم غرم ، ما أحب أن لي دبراً من ذهب وأنى آذيت رجلاً منكم ( والدبر لسان الحيش أى الجبل ) ردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لي بها ، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي<sup>(١)</sup> ملكي ، فأخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه .

قالت : فخرجنا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاء به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة .

(١) كان قد نازعه رجل في ملكه ، فدعا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم للنجاشي بالنصر على عدوه والتكبير له في بلاده ، فاستجاب الله دعوتهم ، وانتصر النجاشي ، وأهلك الله عدوه ، وقالت السيدة أم سلمة عندما علم الصحابة بنصره : فوالله ما علمتنا فرحنا فرحة قط مثلها .

## تعقيب :

أقول : أرايت أيها القارئ العزيز مما قصته علينا السيدة أم سلمة رضی الله عنها كيف اضطرع الحق والباطل ، وكيف استمسك سادتنا المهاجرون بالحق ، وكيف تحملوا في سبيله من الأذى ، فإن الكفار لم يكتفوا بإيذائهم في مكة ، بل أرسلوا من ورائهم من يكيد لهم بالحبشة عند النجاشي ، ولكن الله أحبط كيدهم ، فكان النجاشي باهراً في موقفه ، عظيماً في مسلكه ، كريماً في دينه وكرمه وخلقه ، عفيفاً أيباً ، صادقاً وفيماً ، حمى نزيله ، وأكرم جاره ، وانتصر للحق وكان في كل ذلك على نور من ربه ، فلا تعجب بعد ذلك أن يكون وكيلاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم في زواجه بالسيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان التي تنصر زوجها في الحبشة بعد أن كان مسلماً ، فقارقه بعد أن نصحت له ، وخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفتنها أبوها أبو سفيان بن حرب لو عادت إليه بمكة ( وكان حينئذ على كفره ) وهي مسلمة ، فتزوجها ، و وكل النجاشي في العقد عليها ، فحمى صلى الله عليه وسلم عقيدتها بذلك الزواج الذي أسعدها الله به في الدنيا والآخرة .

كذلك لا تعجب إذا علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى إلى أصحابه بالمدينة المنورة النجاشي حين أعلمه الله بموته ( في رجب سنة تسع من الهجرة ) ، وصلى عليه صلاة الغائب في البقيع ، وكانت تلك أول صلاة صليت في الإسلام على الغائب ، رفع إليه سريره بأرض الحبشة حتى رآه وهو بالمدينة ، فصلى عليه ، واستغفر له ، وتكلم المنافقون ، فقالوا : انظروا إلى هذا ، يصلى على عالج نصراني لم يره قط ، فأنزل الله تعالى في سورة آل عمران :

( وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَائِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ) .

قال ابن إسحق :

وحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت :  
لما مات النجاشي كان يُتحدّث أنه لا يزال يُرى على قبره نور .

مناقب جعفر وابنه عبد الله :

وأقول : رأيت كيف تكلم سيدنا جعفر بن أبي طالب عن الإسلام ودعوته ، وكيف وصف ما كانوا فيه قبل الإسلام ، وما صاروا إليه بعد إسلامهم ، وكيف صرح النجاشي بعقيدة المسلمين في غير مجاملة أو مواربة ، لإرضاء الله ورسوله كائنة ما كانت العاقبة ، ولقد خاف الله من فوقه ، فأمنهم الله جميعاً بما قال صادقاً ، فعاشوا كما قالت سيدتنا أم سلمة رضي الله عنها في خير دار مع خير جار ، أما فصاحة ما تكلم به سيدنا جعفر وجزالته فلا تعجب لها ، فإنه من رؤساء بني هاشم وصادقهم ، وبنو هاشم كما تعلم من فصاحتهم جميعاً إنما يعرفون من بحر الفيض الذي ليس له قرار ، وهم كما وصفهم الجاحظ ملح الأرض ( أي لا تصلح إلا بهم كما لا يصلح الطعام إلا بالملح ) وزينة الدنيا ، وحلى العالم ، والسنام الأضخم ، والكاهل الأعظم ، ولياب كل جوهر كريم ، ومسر كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم .

إنه والله جعفر الذي قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عينيه وقال : لست أدرى بأيهما أنا أشد فرحاً ، بلقاء جعفر أم بفتح خيبر ، وكان صلى الله عليه وسلم قد انتصر على اليهود في خيبر حين لقيه جعفر عائداً من الحبشة .

وهو والله جعفر الذي فدى الإسلام بروحه ، فبذلها دفاعاً عنه في مؤتة ، وكان يومئذ صاحب اللواء بعد أن استشهد زيد بن حارثة ، فلما ضرب الأعداء جعفراً وقطعوا يمينه ، أمسك الراية بيساره ، فقطعوا يساره ، فأمسك الراية بين ذراعيه بعد أن قطعوا يديه حتى أخذها عبد الله بن رواحة ، فاستشهد كما استشهد من قبله زيد وجعفر ، ألا رضى الله عن أسود الشرى وسيوف الإسلام ، فكف نحن مدينون لهؤلاء الأبطال في الحفاظ على دين الإسلام حتى وصل إلينا بسلام .

وهو والله جعفر الذي بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجته السيدة أسماء بنت عميس رضى الله عنها بأن الله أبدله بيديه المقطوعتين جناحين يطير بهما في الجنة، فسمى « ذا الجناحين » ، كما سمي « الطيار » ، إنه آمن بالله إيمان الصادقين ، ومات في سبيله ميتة الصديقين ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الاعتزاز به : « أما جعفر فلا بواكى له » ، وهو أبو عبد الله بن جعفر الذي دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « اللهم بارك لعبد الله في صفقة يمينه » وكان عبد الله لسخائه يسمى قطب السخاء ، وقد تغنى بسخائه الشعراء فقالوا :

إنك يا بن جعفر نعم الفتى      ونعم مأوى طارق إذا أتى  
ورب ضيف طرق الحى سرى      صادف زاداً وحديثاً ما اشتهى

كما قالوا فيه :

وما كنت إلا كالأغر ابن جعفر      رأى المال لا يبقى فأبقى له ذكرا

وعبدالله هو زوج السيدة زينب بنت عمه الإمام على بن أبي طالب ، التي بوركت بلادنا بمشهدها الأنور ، وهو أول مولود ولد للمسلمين في الحبشة ، وأمه هي السيدة أسماء بنت عميس ، التي افتخر عليها سيدنا عمر بالهجرة إلى المدينة المنورة حين كانت بالحبشة ، فقالت له : لقد كنتم بجوار رسول الله يطعمكم ويستقيمكم ، وكنا في بلاد غربة نعانى ما نعانى من ألم الجوع والعطش ، ثم شكته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : وماذا قلت له ، فقالت : قلت له لقد كنتم بجوار رسول الله يطعمكم ويستقيمكم . . . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مطيباً خاطرها : « له ولأصحابه هجرة ، ولكم أهل السفينة هجرتان » .

لأنها والله تضحيات عزيزة ، ولكنهم أرخصوها في سبيل الله حتى تغنى حاديهم وهم مهاجرون إلى الحبشة :

الأهل والأوطان      فراقهم صعب  
لكنه الإيمان      فداؤه القلب  
والروح والأبدان      فليقبل الرب  
فليقبل الرب

قال ابن إسحق :

ولما لم ينالوا من مهاجري الحبشة ما أرادوا ، وأسلم عمر بن الخطاب وكان رجلاً ذا شكيمة ، امتنع به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبجمزة حتى عازوا ( غلبوا ) قريشاً ، وكان عبد الله بن مسعود يقول : ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطاب ، وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة .

وهو عمر الذي قال فيه ابن مسعود رضى الله عنهما : إن إسلام عمر كان فتحاً ، وإن هجرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمة ، فليستمع القارىء الكريم إلى حديث عجب في إسلامه رضى الله عنه ، ليرى أثر الإسلام فيه ، وأثر عمر في الإسلام .

### إسلام عمر :

روى ابن إسحق في إسلام عمر روايات مختلفة ، وما روى بسنده عن عطاء ومجاهد أن إسلام عمر فيما تحدثوا به عنه أنه كان يقول :

« كنت للإسلام مباعداً ، وكنت صاحب خمر في الجاهلية ، أحبها وأسرّ بها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال بالجزورة ( سوق مكة ) ، قال فخرجت ليلة أريد جلسائى أولئك في مجلسهم ذلك ، قال فجتتهم فلم أجد فيه منهم أحداً ، فقلت لو أنى جئت فلاناً الحمار ، وكان بمكة يبيع الخمر ، لعلى أجد عنده خمرأ فأشرب منها ،

« قال : فخرجت فجتته فلم أجد ، قال : فقلت لو أنى جئت الكعبة فظفت بها سبعاً أو سبعين ، قال : فجتت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى ، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، وكان مصلاه بين الركنين : الركن الأسود والركن اليماني ، قال : فقلت حين رأيته ، والله لو أنى استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول ، قال : فقلت لو دنوت منه لأروعته ، فجتت من قبل الحجر ، فدخلت تحت ثيابها ( الكعبة ) فجعلت أمشى رويداً ، ورسول الله صلى الله

عليه وسلم قائمٌ يصلي يقرأ القرآن ، حتى قمت في قبلته مستقبلاً ، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة .

« قال : فلما سمعت القرآن رقّ له قلبي ، فبكيت ودخلت في الإسلام ، فلم أزل قائماً في مكاني ذلك حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته ثم انصرف ، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبي حسين ، وكانت طريقه ، حتى يجزع ( يقطع ) المسعى ، ثم يسلك بين دار عباس بن عبد المطلب ، وبين دار ابن أزر ، ثم على دار الأحنس حتى يدخل بيته ،

وكان مسكنه صلى الله عليه وسلم في الدار الرقطاء ( التي فيها ألوان ) ، قال عمر : فتبعته حتى إذا دخل دار عباس ودار ابن أزر أدركته ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حمى عرفى ، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أني إنما تبعته لأوذية ، فنهمني ( زجرني ) ثم قال : ما جاء بك يا بن الخطاب هذه الساعة ؟

« قال : قلت جئت لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله : فحمد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : قد هدائك الله يا عمر ، ثم مسح صدرى ودعا لي بالثبات ، ثم انصرفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته .

رواية أخرى في إسلام عمر رضي الله عنه :

وفي الروض الأنف رواية أخرى ، جاء فيها :

ذكر ابن منجر قال : حدثنا أبو المغيرة قال بسنده : قال عمر بن الخطاب : خرجت أتعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن أسلم ، فوجلته قد سبقني إلى المسجد ، فقامت خلفه فاستفتح سورة الحاقة ، ففجعت أتعجب من تأليف القرآن : قال : قلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش ، فقرأ : ( إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ) قال : قلت : كاهن عليمٌ ما في نفسي ؛ فقال : ( وَلَا يَقُولِ

كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ) إلى آخر السورة ، قال : فوق الإسلام في قلبي كما وقع ، ويذكرون أن عمر قال شعراً حين أسلم :

الحمد لله ذى المن الذى وجبت	له علينا أباد ماله غير
وقد بدأنا فكذبنا فقال لنا	صدق الحديث نبي عنده الخبر
وقد ظلمت ابنة الخطاب ثم هدى	ربي عشية قالوا قد صبا عمر
وقد نعمت على ما كان من زلل	بظلمها حين تتلى عندها السور
لما دعت ربها ذا العرش جاهنة	والدمع من عينها عجلان يبتدر
أيقنت أن الذى تدعوه خالقها	فكاد تسبقني من عبرة درر
فقلت أشهد أن الله خالقنا	وأن أحمد فينا اليوم مشتهر
نبي صدق أتى بالحق من ثقة	وافى الأمانة ما في عوده ضرر

أقول : ولعل هذه الأبيات ، كما يظهر منها ، تشير إلى رواية أخرى في إسلامه رضى الله عنه غير الروایتين السابقتين ، وقد حدثت بها ابن إسحق ، وقال فيها :

وكان إسلام عمر فيما بلغني ، أن أخته فاطمة بنت الخطاب وكانت عند سعيد ابن زيد ، وكانت أسلمت وأسلم زوجها سعيد ، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نعيم بن عبد الله من بني عدى قد أسلم ، وكان يستخفي بإسلامه خوفاً من قومه ، وكان خباب بن الأرت<sup>(١)</sup> يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يُقرئها القرآن ، فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطاً من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا ، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر الصديق ، وعلى بن أبي طالب ، في رجال من المسلمين رضى الله عنهم ، ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) خباب بن الأرت من السابقين الأولين في الإسلام ، الذين صبروا على ما أوتوا ، وقد سأله أمير المؤمنين عمر يوماً عما لقي في ذات الله ، فكشف ظهره ، فقال سيدنا عمر : ما رأيت كاليدوم ، فقال : يا أمير المؤمنين : لقد أوقدت لى النار فأطفأها لإشحمى .

بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة ، فلقية نعيم بن عبد الله فقال له :  
 أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابي الذي فرق أمر قريش ، وسفته  
 أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله .

« فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أتري بني  
 عبدمناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً !! أفلا ترجع إلى أهل بيتك  
 فتقيم أمرهم ؟ قال : وأى أهل بيتي ؟ قال خنتك ( صهرك ) وابن عمك  
 سعيد بن زيد ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً  
 على دينه فعليك بهما ،

« قال : فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه<sup>(١)</sup> ، وعندهما خباب بن الأرت  
 معه صحيفة فيها ( طه ) يقرئها لياها ، فلما سمعوا حسَّ عمر ، تغيب خباب  
 في مخدع لهم أو في بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة  
 ف جعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما ،  
 فلما دخل قال : ما هذه الهينمة ( صوت كلام لا يفهم ) التي سمعت ؟ قال له :  
 ما سمعت شيئاً ، قال : بلى والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ،  
 وبطش بختن سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن  
 زوجها فصر بها فشجها ،

« فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ،  
 فاصنع ما بدا لك ، فلما رأى عمر ما بأخته من اندم ندم على ما صنع ، فارعى  
 ( رجع ) وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفاً أنظر  
 ما هذا الذي جاء به محمد ، وكان عمر كاتباً ، فلما قال ذلك ، قالت له أخته :  
 إنا نخشاك عليها ، قال : لا تخافي ، وحالف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها ،  
 فلما قال ذلك طمعت في إسلامه فقالت له : يا أخي إنك نجس على شركك ،  
 وإنه لا يمسه إلا طاهر ، فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها ( طه ) فقرأها ،

فلما قرأ منها صدراً ، قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ، فلما سمع ذلك خياب  
 خرج إليه ، فقال له : يا عمر والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة  
 نبيّه ، فإني سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام  
 أو بعمر بن الخطاب ، فإله الله يا عمر ،

« فقال له عند ذلك عمر : فدلتني يا خياب على محمد حتى آتته فأسلم ،  
 فقال له خياب : هو في بيت عند الصفا ، معه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر  
 سيفه فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فضرب عليهم  
 الباب ، فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر  
 من خلل الباب فرآه متوشحاً بالسيف ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو  
 فرح فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف ، فقال حمزة  
 ابن عبد المطلب فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بدلناه له ، وإن كان جاء  
 يريد شراً قتلناه بسيفه ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إيدن له ، فأذن له الرجل ، ونهض  
 إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه في الحجرة ، فأخذ حجزته ( موضع  
 شد الإزار أى وسطه ) أو بمجمع رداءه ، ثم جبذه به جبذة شديدة وقال : ما جاء  
 بك يا بن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة ، فقال  
 عمر : يا رسول الله جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله ، قال  
 فكبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم أن عمر قد أسلم .

قال ابن إسحق :

« فضرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانهم ، وقد عزوا في  
 أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله صلى  
 الله عليه وسلم ، وينتصفون بهما من عدوهم ، فهذا حديث الرواة من أهل المدينة  
 عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم . »

## تعقيب :

أقول : وأنا أقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أسلم عمر : « الله أكبر » فقد جاءه عمر المعروف في مكة بشكيمته وشراسته وفتوته طائعاً مختاراً حين أشرقت عليه أنوار القرآن الكريم ، فامتحت بإشراقها ظلمات الجهالة ، وتحول عمر من الضد إلى الضد ، فلان بعد قسوة ، وصاحب بعد عداوة ، وتاب بعد ذنوب ، واستقام بعد عوج ، ورق بعد شدة ، وراق بعد كدورة ، وصار جيشاً في جنب الله بعد أن كان جيشاً في حزب الشيطان .

« الله أكبر » فقد تحول عمر بقدرة الله من حال إلى حال ، وسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ ، ، سبحانه من إله فعّال يقول للشئ : كن فيكون .

« الله أكبر » فقد أيد الله رسوله صلى الله عليه وسلم بنصره وبالمؤمنين ، وقد سعد عمر بالإسلام ، وسعد الإسلام بعمر ، وقد كتب الله الإسلام لعمر قبل أن يكون من عمر عمل صالح ، فهو قضاؤه الذى قضاه بإيمان عمر ، وحقاً ما قال العارفون : ليس الإيمان ما يتزين به العبد من الأقوال والأفعال ولكنه جَرَى السعادة في سوابق الأزل .

وإني لا أقلل بذلك من قيمة العمل الصالح ، وكيف لى بذلك والعمل ولاء وامتثال للأمر به سبحانه ( وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ . وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ) كما هو إقرار بفضل الله ورمز لشكره على ما أولاه : ( اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ) .

وقد سمع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلاً يقول : اللهم اجعلنى من القليل فقال له : ما هذا الدعاء ؟ فقال الرجل : أردت قول الله تعالى : ( وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ) ، فقال سيدنا عمر رضى الله عنه : كل الناس أعلم منك يا عمر !! ويرى القارى الكريم من ذلك أن الرجل سأل ربه أن

يوقفه للعمل الصالح الذى يقربه، إلى الله عزوجل، فيكون من الشاكرين وهم قليل .  
 وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 كان يقوم من الليل حتى تنفطر (تنشق) قدماه ، فقالت عائشة رضى الله عنها :  
 أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون  
 عبداً شكوراً .

ويقول الإمام القرطبي فى تفسيره : فظاهر القرآن والسنة أن يكون الشكر بعمل  
 الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان ، فالشكر بالأفعال عمل الأركان ،  
 والشكر بالأقوال عمل اللسان .

أقول : وهناك شكر بالجنان ، وهو أن يوقن العبد بقلبه أن كل نعمة  
 جرت أو تجرى عليه فإنما هى من فضل الله تعالى وعطائه ، كما قال تعالى فى  
 سورة النحل : ( وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ) ، اللهم اجعلنا من الشاكرين  
 بالأركان وباللسان وبالجنان يا رب العالمين .

اللهم يامقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك وأحينا عليه ، وأممتنا عليه ،  
 وابعثنا عليه ، مع الآمين من الفرع الأكبر يوم القيامة ، ووفقنا للعمل الصالح  
 الذى يرضيك عنا برحمتك يا أرحم الراحمين ، وبجودك يا أجود الأجودين ،  
 سبحانه لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، يا من قلت فى سورة  
 الحجرات وقولك الحق :

(وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ  
 وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ  
 وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ • فَضَلَّآ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ  
 حَكِيمٌ ) .

ونعود لما كنا فيه :

الصحيفة الظالمة :

قال ابن إسحق :

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلداً

أصابوا به أمناً وقراراً ، وأن النجاشي قد منع من لُجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، فكان هو وحمزة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وجعل الإسلام يفتش في القبائل - اجتمعوا واتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يتباعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ، ثم تعاهدوا وتوثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم ،

فلما فعلت ذلك قريش ، انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب بن عبد المطلب فدخلوا معه في شعبة ، واجتمعوا إليه ، فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا ، لا يصل إليهم شيء إلا سرّاً مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، سرّاً وجهاراً ، منادياً بأمر الله لا يتقَى فيه أحداً من الناس ،

وكانت قريش. إنما تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم مُدَمِّمًا ثم يسبونه ، فكان صلى الله عليه وسلم يقول ، ألا تعجبون لما يصرف الله عني من أذى قريش ، يسبون ويهجون مُدَمِّمًا وأنا محمد ، أقول ما أصبرك يا سيدى يا رسول الله ، وما أحلمك ، وما أرشدك .

### الكفار يقترحون :

واعترض رسول الله وهو يطوف بالكعبة فيما بلغنى الأسود بن عبد المطلب ، والوليد بن المغيرة ، وأمّية بن خلف ، والعاصي بن وائل السهمي ، وكانوا ذوى أسنان في قومهم ، فقالوا :

يا محمد ، هلم فلنعبد ما تعبد ، وتَعْبُد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيراً مما تعبد ، كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان مانعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى فيهم : ( قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ) .

وبلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خرجوا إلى أرض الحبشة لإسلام أهل مكة ، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك ، حتى إذا دنوا من مكة ، بلغهم أن ما كانوا يتحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلا ، فلم يدخل أحد إلا بجوار أو مستخفيا ، فجميع من قدم عليه مكة من أصحابه من أرض الحبشة ٣٣ رجلا ، وكان ممن دخل منهم بجوار ، عثمان بن مظعون الجمحي ، دخل بجوار من الوليد بن المغيرة .

### عثمان بن مظعون :

قال ابن إسحق يحكى موقفاً نبيلاً رائعاً من مواقف عثمان بن مظعون رضى الله عنه : لما رأى عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاء ، وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة ، قال : ' والله إن غدوى ورواحى آتياً بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابى وأهل دينى يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني ، لتقص كبير في نفسى ،

فشئى إلى الوليد بن المغيرة فقال له : يا أبا عبد شمس ، وفث ذمتك ، قد رددت إليك جوارك ، فقال له : يا بن أخي ؟ لعله آذاك أحد من قومي ، قال لا ، ولكنى أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره ، قال : فانطلق إلى المسجد ، فاردد على جوارى علانية كما أجزتكم علانية ،

قال : فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد : هذا عثمان ، قد جاء يرد على جوارى ، قال : صدق ، وقد وجدته وفيّاً كريم الجوار ، ولكنى قد أحببت ألا أستجير بغير الله ، فقد رددت عليه جواره ، ثم انصرف عثمان وليد بن ربيعة في مجلس من قريش ينشدهم ، فجلس معهم عثمان ، فقال لبيد :

• الأكل شيء ما خلا الله باطل •

قال عثمان : صدقت ،

قال لبيد :

• وكل نعم لا محالة زائل •

قال عثمان : كذبت ، نعم الجنة لا يزول ، قال لبيد : معشر قريش ، والله ما كان يؤذى جليسيكم . ففتى حدث هذا فيكم ؟ فقال رجل من القوم : إن

هذا سفیه فی سفهاء معه ، قد فارقوا ديننا ، فلا تجدن فی نفسك من قوله ،  
فرد عليه عثمان حتى شرى (أى زاد) أمرهما ، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه  
فخضرها ، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ عثمان ، فقال : أما والله يا بن  
أخى إن كانت عينك عما أصابها لغنية ، لقد كنت فى ذمة منيعة .

قال : يقول عثمان : بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب  
أختها فى الله ، وإنى لنى جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس ، فقال  
الوليد : هلم يا ابن أخى إن شئت فعد إلى جوارك ، فقال : لا .

أقول : فما أعظم هذه النفوس المؤمنة الأبية ، فقد اعتر عثمان بن مظعون بربه  
واحتمى فيه ، وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً ، وكيف لا يفعل وقد شهد له  
رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه من سلفنا الصالح ، وذلك حين دفن إلى جواره  
فى البقيع ابنه الطفل سيدنا إبراهيم عليه السلام ، الذى كان له من مارية عليها  
السلام ، وقال يخاطب وليده : الْحَقُّ بِسَلْفِنَا الصَّالِحِ عُمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ ، وكان  
عثمان رضى الله عنه أول من دفن فى البقيع من المهاجرين الكرام ، رضى الله عنهم  
وعن الأنصار أجمعين وعمن والاهم بإحسان إلى يوم الدين .

### الصديق يرد الجوار :

وانظر إلى موقف الكفار من سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فقد كان  
له مسجد عند باب داره فى بنى جمح ، وكان رضى الله عنه إذا قرأ القرآن استبكى ،  
قالت السيدة عائشة فكان يقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته ،  
قالت : فشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة — وكان قد أجاره — فقالوا له :  
يا بن الدغنة إنك لم تجر هذا الرجل لتؤذينا ، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به  
محمد يرق ويبكى ، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم ،  
فأته فمُرّه أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء ،

فشى ابن الدغنة إليه فقال له : يا أبا بكر إنى لم أجرك لتؤذى قومك ، لأنهم  
قد كرهوا مكانك الذى أنت فيه ، وتآذواً بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع  
فيه ما أحببت . قال : أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟ قال : فاردد  
على جوارى ، قال : رددته عليك ، فقام ابن الدغنة فقال : يا معشر قريش ،

إن ابن أبي قحافة قد ردّ على جوارى ، فشأنكم بصاحبكم .  
قال ابن إسحق فحدثوني أن سفيهاً من سفهاء قريش لقي أبا بكر وهو  
عامد إلى الكعبة ، فحنا على رأسه تراباً ، فر بأبي بكر الوليد بن المغيرة أو العاص بن  
واثل ، فقال له أبو بكر ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفيه ؟ قال : أنت فعلت  
ذلك بنفسك ، قال وهو يقول : أى رب ما أحلمك ، أى رب ما أحلمك ،  
أى رب ما أحلمك !

### معجزة في شأن الصحيفة الظالمة :

وقد مر عليك خبر الصحيفة الظالمة التي تعاهد فيه الكفار على مقاطعة نبي  
هاشم وبنى المطلب وأودعوها الكعبة ، وإليك ما كان من شأنها بعد ذلك :  
فقد جهد المسلمون من ضيق الحصار حتى أكلوا ورق الشجر ، ولقد قال  
سيدنا سعد بن أبي وقاص : جعت حتى إني وطئت ذات ليلة على شيء رطب  
فوضعتة في فمي وبلعته ، وما أدري ما هو إلى الآن .

وقد كشف الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن الأرضة أكلت الصحيفة الظالمة ،  
فقال لعمه أبي طالب : يا عم ، إن ربى الله قد سلط الأرضة على صحيفة  
قريش ، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها ، ونفت منها الظلم والقطيعة  
والبهتان ، فقال : أربك أخبرك بهذا ؟ قال : نعم ، قال : فوالله ما يدخل عليك  
أحد ، ثم خرج إلى قريش فقال : يا معشر قريش إن ابن أخي أخبرني بكذا  
وكذا ، فهلم صحيفتكم ، فإن كان كما قال ابن أخي فانتهاوا عن قطيعتنا ، وأنزلوا  
عما فيها ، وإن يكن كاذباً دفعت إليكم ابن أخي ، فقال القوم : رضينا ،  
فتعاقدوا على ذلك ، ثم نظروا ، فإذا هي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
فزادهم ذلك شراً ،

ولكن قام رجال منهم فعملوا على نقض الصحيفة وقال قائلهم : بأهل مكة  
أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكت لا يباع لهم ولا يبتاع منهم ، والله  
لا أقعد حتى تشق تلك الصحيفة القاطعة الظالمة ، وقام المطعم بن عدى ليشقها  
فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » كما قال رسول الله صلى الله عليه  
وسلم .

قال ابن إسحق :

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما يرى من قومه ، يبذل لهم النصيحة ، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه : وجعلت قريش حين منعه الله منهم ، يحذرونه الناس ومن قدم عليهم من العرب .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس في المسجد ، فجلس إليه المستضعفون من أصحابه : خباب ، وعمار ، وأبو فكيهة ، وصهيب وأشباههم من المسلمين ، هزئت بهم قريش ، وقال بعضهم لبعض : هؤلاء أصحابه كما ترون ، هؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق !! لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه ، وما خصهم الله به دوننا .

فأنزل الله تعالى فيهم في سورة الأنعام : (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ \* وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ \* وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني ، كثيراً ما يجلس عند المروة إلى بيعة غلام نصراني يقال له جبر ، عبد لبني الحضرمي ، فكانوا يقولون : والله ما يُعَلِّمُ محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني ، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم في سورة النحل : (وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ<sup>(١)</sup> إِلَيْهِ أَعْجَبُ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ) .

(١) يلحدون أى يميلون إليه ، والإلحاد هو الميل عن الحق .

وكان العاصي بن وائل السهمي فيما بلغني إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دعوه ، فإنما هو رجل أبتّر لا عقب له ، فأنزل الله في ذلك سورة الكوثر : ( إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ • فَصَلِّ لِرَبِّكَ • وَأَنْحَرْ • إِنَّ شَانِئَكَ (١) هُوَ الْأَبْتَرُ) . والكوثر الخير الكثير ، وقيل نهر كبير في الجنة ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَا يَظْمَأُ أَبَدًا .

### موت السيدة خديجة وأبي طالب :

قال ابن إسحق :

« ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب ماتا في عام واحد ، فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بموت خديجة ، وكانت له وزير صدق على الإسلام وبموت عمه أبي طالب ، وكان له عضداً وحرزاً في أمره ، ومنعةً وناصرًا على قومه ، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين ، فلما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب .

### مفاوضة الكفار :

قال ابن إسحق :

ولما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشاً ثقله ، قالت قريش بعضها لبعض إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب ، فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعظه منا ، والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا . قال : فمشوا إلى أبي طالب فكلّموه ، وهم أشراف قومه : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأمّية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، في رجال من أشرافهم ، فقالوا : يا أبا طالب : إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك ،

(١) شانك : مبغضك .

فادعه فخذ له منا ، وخذ لنا منه ، ليكف عنا ونكف عنه ، وليدعنا وديننا ،  
وندعه ودينه ، فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال :

يا بن أخي هؤلاء أشرف قومك ، قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك ،  
قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، كلمة واحدة تعطوننيها تملكون  
بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ، قال : فقال أبو جهل : نعم ، وأبيك ،  
وعشر كلمات ، قال : تقولون : لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه ، قال  
فصفقوا بأيديهم ، ثم قالوا :

أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ، إن أمرك لعجب ! قال :  
ثم قال بعضهم لبعض ، إنه والله ما هذا الرجل بمعطيك شيئاً مما تريدون ،  
فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه ، قال : ثم  
تفرقوا ، وأنزل الله في سورة ص : ( ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ • بَلِ الَّذِينَ  
كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ • كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتَ حِينَ  
مَنَاصٍ • وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ •  
أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلْهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ • وَاَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا  
وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ • مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ <sup>(١)</sup> الْآخِرَةِ  
إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ) .

خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف :

قال ابن إسحق :

ولما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من  
الأذى ما لم تكن تنال منه في حياته ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف  
يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم  
به من الله عز وجل ، فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم من نصرته على الإسلام ،

( ١ ) يعنون النصارى الذين يقولون إن الله ثالث ثلاثة .

والقيام معه على من خالفه من قومه ، فردوا عليه ردًّا قبيحاً ، فقال لهم : إذ فعلتم ما فعلتم فاكنموا عني .

وقد أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط (بستان) لعنبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه ، فتحركت له رحمهما وأرسلا له قطعاً من العنب مع غلام نصرانيّ لهما يقال له عدّاس

سعادة عدّاس :

فأقبل عدّاس بطبق فيه القطف ، ووضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال له : كل ، فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يده قال : باسم الله ، ثم أكل ،

فنظر عدّاس في وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن أهل أى البلاد أنت يا عدّاس وما دينك ؟ قال : نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ، فقال له عدّاس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك أخي ، كان نبياً وأنا نبي ، فأكب عدّاس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقلميه .

قال : فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك ، فلما جاءهما عدّاس قالوا له : ويحك يا عدّاس ، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقلميه ؟ قال يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا ، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي ، قالوا له : ويحك يا عدّاس ، لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه ، أقول : وقد أخلص عدّاس دينه لله ، فساق الله له السعادة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله يعز من يشاء ويدل من يشاء ، والله العزة وبرسوله وللمؤمنين :

## تضرع نبوي :

وقد توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لربه بالشكوى ، ودعا دعاءه المشهور فقال وهو بالطائف :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ( أى يستقبلني بوجه كربه ) ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك عليّ غضبٌ فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

قال ابن إسحق :

ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه ، إلا قليلا مستضعفين ممن آمن به ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الله ، ويخبرهم أنه نبي مرسل ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم ما بعثه الله به .

وقد فشا الإسلام بمكة في قريش وفي القبائل كلها ، ثم أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كيف شاء الله سبحانه ، ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم وقدرته التي يصنع بها ما يريد ؛ وكان في مسراه وما ذكر عنه بلاء وتمحيص لمن آمن بالرسالة وصدق بها على يقين — أقول وستأتيك قصة الإسراء والمعراج كاملة في باب لاحق من أبواب الكتاب إن شاء الله .

## القاء الأول مع الأنصار :

قال ابن إسحق :

فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه ، وإعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم ،

وإنجاز مواعده له ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع في كل موسم .

فبينما هو عند العقبة ( في منى ) لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : أمن موالي يهود ؟ قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى !

« فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، قال : وكان مما صنع الله بهم في الإسلام ، أن يهود كانوا معهم في بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظلم زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلمون والله أنه للنبي الذي توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : إنا تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشرا ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فستقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك :

« قال فلما قدموا المدينة إلى قومهم ، ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعوهم إلى الإسلام ، حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

### اللقاء الثاني بالأنصار :

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا ، فلاقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة الأولى ، فبايعوه على بيعة النساء<sup>(١)</sup> ، وذلك قبل أن تفرض عليهم الحرب .

### أول سفير في الإسلام :

قال ابن إسحق :

فلما انصرف عنه القوم ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مصعب ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي ، وأمره أن يُقرئهم القرآن ويُعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين .

أقول ، فكان سيدنا مصعب بن عمير ، رضى الله عنه أول سفير في الإسلام ، وقد أسلم على يديه سعد بن معاذ وأسيد بن حضير رضى الله عنهما ، وهما يومئذ كبيراً بنى عبد الأشهل وتبعهما قومهما .

### اللقاء الثالث بالأنصار :

ثم إن مصعب بن عمير رضى الله عنه رجع إلى مكة ، وخرج من خرج من مسلمى الأنصار إلى موسم الحج مع حجاج قومهم من أهل الشرك . فواعد الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة في أوسط أيام التشریق . وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين .

يقول كعب بن مالك رضى الله عنه : فنمنا تلك الليلة مع قومنا في

(١) وهي المذكورة في قوله تعالى في سورة الممتحنة : (يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَلَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِنُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا نتسلل تسلل القطا مستخفين (القطا طائر صغير) حتى اجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر ابن أخيه ويتوثق له ، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال :

يا معشر الخزرج ، خزرجها وأوسها ، إن محمداً منّا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللاحق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتكم إليه وما نعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحماتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده .

بيعة العقبة :

قالوا : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، قال : فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ، ثم قال :

أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم ، فأخذ البراء بن معرور رضي الله عنه بيده وقال : نعم ، والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما تمنع منه أزرنا (أى نساءنا) فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (أى السلاح) ورثناها كابراً عن كابر .

قال : فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو الهيثم بن التيسهان ، فقال : يا رسول الله : إن بيننا وبين الرجال حبلاً وإننا قاطعوها - يعني أهل مكة واليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم (أى ما هدمتم من الدماء هدمناه) أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

أقول : وجاء في رواية أخرى أنه صلى الله عليه وسلم قال : معاذ الله، الحيا محياكم  
 والممات مماتكم ، ففرحوا وقالوا : هذه أيدينا فخذ لربك ولنفسك ما أحببت ،  
 فبايعهم وقال : أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا كفلاء على قومهم بما  
 فيهم ، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فقال رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم لهؤلاء النقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الحواريين  
 لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي - يعني المسلمين - قالوا : نعم .